الجهود الصوتية للمرعشي من خلال كتابه جهد المقل

الدكتورة: هاجر محمد الجويلي
كلية الآداب– جامعة طرابلس

مدخل:

تميزت كتب علماء التجويد باحتوائها على مادة صوتية لا تقل أهمية عما احتوته كتب النحو والصرف ومعاجم اللغة، بل نجدها أكثر دقة وتفصيلاً في تناولها القضايا الصوتية، خاصة وأن الهدف من تأليف كتب التجويد هو معالجة ما عرف عندهم باللحن في قراءة القرآن، ويتضح ذلك جليا عند محمد المرعشي الملقب بساجقلي زاده في كتابه جهد المقل عندما تحدث عن اللحن وفصل فيه وبينه، ليصل إلى حقيقة مفادها أن موضوع علم التجويد هو الحروف القرآنية ومعرفة مخارجها وصفاتها يقول في ذلك:- "وأما علم التجويد فالغرض منه معرفة ماهيات صفات الحروف"[1] حتى يصان النص القرآني من اللحن، ولعل هذا الهدف جعل المرعشي يدرس أصوات العربية دراسة موسعة أعانه على ذلك ما توفر بين يديه من دراسات سابقة، وقد قادني للحديث عن جهوده الصوتية هو إضافاته في الدرس الصوتي الحديث وطريقة تحليله وعرضه للمسائل الصوتية المختلفة، وقد اخترت من مسائله الصوتية دراسته للأصوات حال إفرادها أي دراسة مخارجها وصفاتها، والسبب في ذلك ما تميزت به آراءه الصوتية في هذا المجال من تفرد في بعض الأحيان..

ترجمة المصنف:

هو محمد بن أبي بكر المرعشي المعروف بساجقلي زاده، يُجهل تاريخ مولده، لقب بالمرعشي نسبة إلى مرعش، سافر إلى الشام لطلب علم الحديث والتفسير، له عدة مؤلفات منها، شرح الرسالة القياسية في المنطق، تقرير القوانين المتداولة، جهد المقل

1ـ جهد المثل، ص 11.

وبيان جهد المقل في علم التجويد، وله رسالة في الضـــاد، توفـــي في مرعش سنة 1150هـ الموافق لسنة 1732م[1]

والمطلع على مؤلفه جهد المقل سيلحظ منهجية دقيقة في تناوله القضايا الصوتية لا يعوزها الشرح والتفصيل والدقة في العرض، ومن أهم المسائل الصوتية التي تناولها المرعشي المخارج والصفات وسأتناولها مرتبة بالمسألة .

المسألة الأولي: وصف أعضاء النطق

دأب الدرس الصوتي الحديث في دراسته للأصوات اللغوية على الوصف لجهاز النطق عند الإنسان، وهذا الأمر أيضاً نجده عند علماء التجويد وغيرهم من علماء العربية مع فارق في طريقة العرض، فقد كان القدامـــى يتحدثون عن هذه الأعضاء أثناء حديثهم عن المخارج.

ولعل السبب في ابتداء الدرس الصوتي بالحديث عن آلة النطق أو وصفها هو التعرف على الأعضاء التي تشترك في إنتاج الأصوات اللغوية، لكن المرعشي لم يتبع في مؤلفه هذا التقليد واكتفى بوصف الأسنان وتسميتها، ولعله في ذلك أدرك الأهمية الكبيرة للأسنان في المساهمة لإخراج الصوت اللغوي، وفي دراسة للدكتور سمير أستيتية وجدت تناوله لها بالتفصيل، وكان ذلك ضمن حديثه عن أعضاء نطق الصوت اللغوي، ولن أدعي هنا أن المرعشي كان على علم بالحقائق التي توصل لها الدرس الصوتي الحديث حول الأسنان، لكن حديثه عن الأسنان في مقدمة المخارج وبيانها يجعلنا نستنتج إدراك أهميتها في تكوين وإنتاج الصوت اللغوي، والدرس الصوتي الحديث[2] يرى أن لشكل الأسنان وطبيعتها التركيبية تأثيراً في نطق الأصوات الصفيرية، ناهيك عن حقيقة ما يُعرف بدرجة الامتصاص للأصوات وانعكاس الموجات الصوتية،ويظهر ذلك العيب في النطق عندما تكون الأسنان صناعية ويورد د. أستيتية أن الأسنان غير

1 – انظر الأعلام 60/6.

2 – انظر الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية ص 37، 38، 39

ناصعة البياض تكون أقل في امتصاص الموجات الصوتية من الأسنان غير الناصعة، كذلك يؤثر نضج الأسنان في درجة امتصاص الصوت، فالأسنان اللبنية أكثر قدرة على امتصاص الأصوات من الأسنان الناضجة، ولذلك تأتي أصوات الأطفال غير واضحة بسبب علو درجة الامتصاص للصوت عند الأطفال، وهذا التفصيل يقودنا إلى قول المرعشي المقارب لهذه الحقيقة عندما يقول في الفصل الرابع في بيان الأسنان "هي في أكثر الأشخاص اثنان وثلاثون"[1] وهو هنا لم يصرح بتأثير نضج الأسنان في درجة امتصاص الصوت، لكن المدقق في كلامه سيصل إلى حقيقة مقصده وهو تأثير نضج الأسنان في إخراج الأصوات، فهي لا تكون في بعض الأشخاص اثنان وثلاثون كما هو الحال عند الأطفال،وذلك لا يعني أن حديثه لم يتناول أعضاء النطق فقد وصف أو بالأحرى سمى هذه الأعضاء عند حديثه عن مخارج الأصوات كما في قوله:- "وما بين حافتي اللسان مما يحاذيها من الأضراس العليا يخرج منه الضاد" [2]

المسألة الثانية: إنتاج الصوت وعملية التصويت

كما هو معروف فإن تيار الهواء هو المادة الأساسية لإنتاج الصوت اللغوي، وهذه الحقيقة أدركها المرعشي وشرحها في كتابه جهد المقل، وتقوم فكرة إنتاج الأصوات عند المرعشي على شيئين هما: النفس والاعتماد، والنفس عنده هو النفس المسموع، فإن لم يكن مسموعا فهو نفس الإنسان بطبعه وإن كان غير ذلك فهو صوت إذا ما اعتُمد له في مخرجٍ محققٍ أو مقدر يصير حرفاً يقول المرعشي في ذلك:- "ومعنى اعتماد الصوت على المخرج :تضييق المخرج وضغط الصوت فيه "[3] ويقودنا حديثه عن النفس المسموع وغير المسموع إلى ما يعرف بفكرة الصوت الساذج، والتي أخذ بها علماء العربية والتجويد المتقدمين عند حديثهم عن إنتاج الأصوات اللغوية، وهذه

---

[1] - جهد المقل، ص 18 .

[2] - المصدر نفسه ص 28 .

[3] - جهد المقل،ص 24 .

الفكرة تتلخص في أن النفس الذي يخرج من الصدر يكون ذا شكل ساذج . أي ليس له ملامح محددة – وهو يشكل المادة الخام للصوت إذا كان مسموعاً والتي تتكون منها حروف اللغة فيما بعد، ومن هنا كان النفس الذي وصفه المرعشي بالنفس المسموع هو الصوت الذي يكون ضغطه في المخرج منتجاً للحرف في اللغة ويؤكد هذه الحقيقة قوله:- "لأن حقيقة الصوت هو النفس المسموع"[1] ونخلص من ذلك إلى أن المرعشي في حديثه عن عملية التصويت أو انتاج الصوت اللغوي أشار إلى أن الهواء الخارج من رئتي الإنسان، إذا كان نفسا مسموعا فهو صوت يصير حرفا إذا ما ضُغط في مخرجه، وهذه الحقيقة أقرتها الدراسات الصوتية الحديثة[2] والتي رأت أن حركة تيار الهواء جزءاً أساسياً في نطق الصوت اللغوي، فلولا هذا الهواء الصادر من الرئتين لما تم نطق الصوت وهو ما أطلق عليه د. أستيتية تيار الهواء المنتج للصوت .

تيار الهواء المزفور وأثره في عملية إنتاج الصوت:

يشير المرعشي في أثناء حديثه عن مخارج الحروف إلى حقيقة صوتية أخري تدل على مدى دقته وفحصه لكلام سابقيه من العلماء، وتتمثل هذه الحقيقة في أن الأصوات في اللغات المختلفة تنتج حال زفرنا بالهواء،أي أثناء عملية الزفير يقول المرعشي: "إن الغالب تلفظ الكلم مع إخراج النفس وأما تلفظها مع إدخاله فيعسر ويقبح به الصوت عند الجهر"[3] ونستنتج من قوله هذا ما يعرف في الدرس الصوتي الحديث بالأصوات الخارجة والأصوات الداخلة، فالوضع الطبيعي عندما ينطق الإنسان الكلام يتم عند التحكم في عملية الزفير وهذه تسمى الأصوات الخارجة[4] لأن معظم الكلام الذي ينطق به الإنسان ما هو إلا اعتراض لهواء الزفير، أما الأصوات الداخلة فقد أشار المرعشي لها في حديثه عن طريقة خروج الكلام ونستنتج ذلك من قوله: "وأما

[1] – المصدر نفسه ص 40 .

[2] – انظر الأصوات اللغوية ص 79 .

[3] – جهد المقل، ص 35 .

[4] – انظر دراسة الصوت اللغوي ص 111،112.

تلفظها مع إدخاله فيعسر ويقبح"[1] فهذه الأصوات من وجهة نظره ليست عسيرة فحسب بل لا يستسيغها السمع،وحول هذا الأمر أعرض ما بيّنه د. أستيتية عندما تحدث عن اتجاه حركة تيار الهواء، فإذا كان اتجاهها عكس الاتجاه الطردي –أي من الخارج الى الداخل – فإن هذه الأصوات تسمي في هذه الحالة بالأصوات الداخلة أو الأصوات الشهيقية ومثّل د. أستيتية لها باللام الامتصاصية والتي تستعمل في بعض البلاد العربية لزجر بعض الحيوانات، وهي لا تستعمل كفونيمات في العربية، كذلك تحدث هذه الاصوات عندما يحاول بعض الممثلين على خشبة المسرح أن يخفي صوته فينطق بعض الأصوات مع الشهيق على غير طبيعتها[2].

المسألة الثالثة: وصف المخارج

قبل الدخول في تقسيمه للمخارج أود الإشارة إلى قضيتين مهمتين هما :

– تصنيفه للمخارج الكلية والجزئية .

– تصنيفه للمخرج المحقق والمقدر.

وقد اعتمد في تصنيفه للمخرج الكلي والجزئي على التقارب الشديد بين الأصوات ذات المخرج الواحد والتي لا يميز بينها إلا الاختلاف في صفة واحدة، أما الأصوات التي يمكن التمييز بينها فلا خلاف فيها يقول المرعشي: – "والمخارج السبعة عشر متمايزة تمايزا بينا، بخلاف المخارج الجزئية المشتركة في مخرج كلي من هذه السبعة عشر"[3].

أما المخرج المحقق والمقدر، فقد اعتمد في توصيفهما على النفس المسموع فإذا انضغط الصوت في المخرج حتى ينقطع كان المخرج محققا، أمّا إذا لم يحدث انضغاطاً للصوت كان المخرج مقدراً وقد خص به حروف المد، والمخرج المقدر هو الذي لا يمكن اعتراض الصوت فيه.

---

[1]– جهد المقل،ص35.

[2]– انظر الأصوات اللغوية، ص89.

[3]– جهد المقل،ص 21.

المخرج الأول: أقصى الحلق جعله للهمزة والهاء، وأشار المرعشي إلى الألف الذي وصف مخرجه من أقصى الحلق، وهو هنا يرى أن جعل موضع أقصى الحلق للألف المدية مُجازاً، لأنها . وحسب معياره الذي وضعه للمخرج . لا ينقطع صوتها في أقصى الحلق وإنما مبـدأ صوتها منه، يقول في ذلك: "لكن جعل الموضع الثالث مخرج الألف المادية مُجاز، وإنما هو مبدأ صوته"[1] وتتفق الدراسات الصوتية الحديثة مع ما ذهب إليه المرعشي في أن أقصى الحلق مبدأ صوت الألف وليس مخرجه، ويفسر د.حسام النعيمي هذا الأمر بأن الصوت مادة موجودة مع النفس قبل أن يصل إلى موضع القطع أو ولادة الحرف، بل إن أول الصوت يكون من أقصي الحلق ويُحس أثره هناك دون أن يكون له في جهاز النطق مقطع، وهذا ينطبق على صوت الألف، فلولا الاهتزاز الذي يصاحبها عند النطق بها لكانت الألف عبارة عن هواء دون صوت ولذلك عُدَّ موضع الاهتزاز مخرجها[2].

المخرج الثاني: وهو وسط الحلق جعله للعين والحاء.

المخرج الثالث: أدنى الحلق وهو مخرج الغين فالخاء، وهو في حديثه عن هذه المخارج الحلقية بين أن عدم جعلها مخرجا كلياً مقسماً إلى مخارج جزئية، هو التباين الكبير بينها بحيث يسهل تمييزها لذا لم تكن في حاجة إلى تسمية مخارج جزئية لها[3].

المخرج الرابع: وخصصه لمخرج القاف، وهي تخرج من بين أقصى اللسان وما يحاذيه من الحنك الأعلى.

المخرج الخامس: جعله للكاف وهي تخرج من بين أقصى اللسان بعد مخرج القاف وما يحاذيه من الحنك الأعلى، وبعد فراغه من تصنيف صوتي القاف والكاف أوضح أن عدم وضعهما تحت مخرج كلي وهو أقصى اللسان أن القاف والكاف بعيدتان، فالقاف

---

[1]- المصدر نفسه، ص 26 .

[2]- انظر التحول والثبات في أصوات العربية، المجلد 7، 1/ 273،274.

[3]- انظر جهد المقل،ص26،27.

أقرب إلى منطقة الحلق من الكاف، ولأن المعيار الذي وضعه لتصنيف المخرج الكلي والجزئي لم ينطبق عليهما جعل كل واحدة في مخرج.

المخرج السادس: جعله لمجموعة الجيم و الشين والياء وقد سلك هنا مسلك الجمهور في تصنيف الياء غير المدية من هذا المخرج وهو وسط اللسان وما يحاذيه من الحنك الأعلى.

المخرج السابع: جعله لصوت الضاد وهي تخرج من بين حافتي اللسان مما يحاذيها من الأضراس العليا، وقد عقد لها فصلاً في كتابه ليبين الفرق بينها وبين الحروف التي أشبهتها، ففرق بينها وبين الظاء باستطالتها واختلاف مخرجها، وسمى الضاد التي تنطق ظاءً بالضـــاد الضعيفة[1]، أمّا الفرق بين الضاد والطاء أن الضاد رخو والطاء شديدة والضاد مستطيلة وفيها تفشي والطاء ليست كذلك، ولذا وجب بيان الضاد من الطاء إذا تجاورتا كما في قوله تعـــالي: ﴿فمن اضطر﴾[2].

المخرج الثامن: وجعله لصوت اللام، وهو يخرج من حافتي اللسان وما يحاذيهما من اللثة وحدد منطقة اللثة في قوله: "وهي لثة الضاحكين والنابين والرباعيتين والثنيتين"[3].

المخرج التاسع: وجعله للنون، وهي عنده تخرج من بين رأس اللســـان وما يحاذيه من اللثة، وهي لثة الثنيتين العليين .

المخرج العاشر: وهو للراء، وهي تخرج من بين رأس اللسان مع ظهره مما يلي رأسه وما يحاذيهما من لثة الثنيتين العليين، وقد ناقش المرعشي[4] الرأي القائل أن الراء أدخل في ظهر اللسان من النون، واعتمد في تحديد أيهما أسبق على العضو المنتج لهما، حيث اعتبر ظهر اللسان أدخل من رأسه، فهو هنا يحاول تحديد أسبقيتهما باعتبار أن كل من النون والراء يشترك رأس اللسان في إنتاج صوتيهما، فإذا نظرنا إلى ما يلامسه

---

[1]- انظر جهد المقل،ص59،60،61.

[2]- البقرة 173.

[3]- جهد المقل،ص28.

[4]- انظر المصدر نفسه، ص 29،30.

رأس اللسان من اللثة كان مخرج النون هو الأسبق، وإذا نظرنا إلى ظهر اللسان كان مخرج الراء قبل النون، وكل هذا الترتيب يخضع لطريقة التصنيف والتي تبدأ من منطقة الحلق وتنتهي بالشفتين،وهي طريقة اعتمدها المتقدمون في وصفهم مخارج الأصوات، وبعد فراغه من تحديد مخارج الصوامت الثلاثة يبدأ في طرح آراء من سبقه من العلماء ليناقش من جديد معياره في وصف المخارج الكلية أو الجزئية، وهو هنا لا يرى خلافاً أن لكل منها مخرجاً جزئياً، ولكن الخلاف في القدرة على تطبيق معياره الموضوع للمخارج الكلية أو الجزئية، فالذي يجعل هذه الصوامت من مخرج واحد كلي يعتمد على أن لكل منها مخرجـاً جزئياً يصعب تمييزه بسبب تقاربها، والذي يجعلها ثلاثة مخارج يرى أنه لا صعوبة في التمييز بينها بسبب وضوح مخارجها، ولكي يصل إلى نتيجة مفادها أن اللام مخرج جزئي مستقل والنون والراء مخارج جزئية في مخرج كلي اعتمد على عرض اللثة وطولها، والتي تُعدّ من أعضاء النطق لهذه المخارج، فمخرج اللام أوسع من مخرج النون والراء باعتبار ارتكاز طرف اللسان على اللثة، حيث تكون المساحة على طول اللثة مع اللام أكبر منها مع النون والراء، ونستطيع تمييز ذلك بالتجربة الذاتية لأننا نحس أن طرف اللسان مع اللام يأخذ مساحة أكبر على طول اللثة في حين تكون المساحة مع النون أكبر منها مع الراء، وقد ركز هنا على طول اللثة وليس على عرضها لأن مساحة العرض متقاربة بينها، وتُعدُّ هذه طريقة جديدة في تعين الصوامت المتقاربة عن طريق مواضع التقاء عضوي النطق، وتحديد الشكل الذي تتخذه هذه الأعضاء مع إيجاد الفروق في عملية النطق بينها، وقد وجدت وصفاً في الدرس الصوتي الحديث[1] يؤكد ما ذهب إليه المرعشي في وصف اللثة واتخاذها معيارا لتحديد نقاط الاختلاف بين الصوامت الثلاثة المتقاربة في النطق، حيث تصف هذه الدراسة صوت اللام بأنه يخرج من اتصال طرف اللسان باللثة فلا يعمل مع هذا الصوت غير طرف اللسان واللثة، ولذلك كانت المساحة التي اتخذها طرف اللسان على اللثة أطول،والدليل على ذلك هو خروج الهواء من جانبي اللسان

[1]- انظر الأصوات اللغوية، ص175،174،173.

بسبب اتصال طرف اللسان باللثة، أمّا النون فيكون معها طرف اللسان مرتكزاً على أصول الأسنان العليا مع اللثة ومن هنا كان الفرق في المساحة الطولية التي يغطيها طرف اللسان مع صوت النون مقارنة مع صوت اللام، ذلك أن طرف اللسان يأخذ مساحة أقل بسبب اشتراك أصول الأسنان العليا مع اللثة في عملية ارتكاز طرف اللسـان، أما الراء فهي أقل من سابقتيها لأن حركة طرف اللسان تكون عبارة عن طرقات خفيفة على اللثة .

المخرج الحادي عشر: جعله لأصوات الطاء والدال والتاء، وهي تخرج من بين رأس اللسان وأصل الثنيتين العليين، وقد اشترط[1] أن يكون العضو هو مخرج انقطاع الصوت لأنه لا يكفي الانحصار لجعل الطاء أوسع من الدال والتاء، وقد أدى هذا الشرط إلى اعتبار الطاء حرفاً ينقطع صوتها في الموضع الذي ينقطع فيه صوت الدال والتاء .

المخرج الثاني عشر: وجعله للصاد والسين والزاي، وهي عنده تخرج من بين رأس اللسان وبين صفحتي الثنيتين الداخلتين، ويقصد بصفحتي الثنيتين جانبا الثنيتين الداخلتين أو عرضهما، ورد في لسان العرب "الصفح:الجنب ..... وصفح كل شيء جانبه"[2] وقال أيضا: "وفي حديث سعد بن عبادة لو وجدت معها رجلا لضربته بالسيف غير مصفح: يقال أصفحه بالسيف إذا ضربه بعرضه دون حده"[3] والأقرب إلى توصيفه هو معنى العرض للثنيتين، وفيها يسامت رأس اللسان عرض الثنيتين ولا يتصل بهما ومعني يسامتهما ينحو نحوهما[4] أي يتخذ طريقه نحوهما دون ملامسته لهما، وقد عالج المرعشي تصنيف المخارج أصوات الصفير وأعطى الوصف الدقيق لهما في تحديد الثنايا التي تشترك مع طرف اللسان، فقد وردت في بعض كتب

---

[1]- انظر جهد المقل، ص30، 31.

[2]- لسان العرب ابن منظور، صححه أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي 6 / 354.

[3]- المصدر نفسه 354/6.

[4]- المصدر نفسه 354/5.

التجويد أن هذه الثنايا هي السفلي[1] ووصف المرعشي ذلك بوجود إشكال فيه لأن المخرج عنده ما ينقطع فيه الصوت، والصوت في هذه الثلاثة لا يجري بين رأس اللسان والثنايا السفلى حتى يتصور انقطاعه هناك، بل إنه يجري بين طرف اللسان وبين الثنـــايا العليا حيث ينقطـع هناك، وهذا الوصف أثبتته الدراسات الحديثة أيضاً فأصوات الصفير تخرج من طرف اللسان مع الثنايا العليا[2].

المخرج الثالث عشر: جعله المرعشي للظاء والذال والثاء، وهي تخرج من بين ظهر اللسان مما يلي رأسه وبين رأس الثنيتين العليين، وقد عدّ المرعشي هذه المخارج أقرب إلى خارج الفم من مخرج الطاء وأختيها، ومعياره في ذلك اعتبار رأس اللسان أو طرفه، لأن طرف اللسان مع هذه الأصوات يكون أقرب إلى خارج الفم، وفي ترتيبه بين الظاء والذال والثاء يتخذ المرعشي طرف اللسان معياراً لترتيب الأسبق بينهما في قربها إلى خارج الفم، فكانت الثاء أولاً ثم الذال فالظاء، وأوضح المرعشي سبب تأخر الظاء عن أختيها في أن قرب طرف اللسان إلى خارج الفم غير واضح فيها، والسبب في ذلك حركة مؤخرة اللسان بسبب عملية الإطباق وتراجعه إلى الخلف[3] مما يؤثر على مقدمته ليكون قربه إلى خارج الفم بدرجة أقل من التاء والذال.

المخرج الرابع عشر: وهو للفاء حيث وصف خروجها من بين الشفة السفلى ورأس الثنيتين العُليين.

المخرج الخامس عشر: من بين الشفتين وجعله للباء والميم والواو، وفي حديثه عن كيفية خروج هذه الأصوات تناول بالشرح حركة انطباق الشفتين مع كل واحدة منها، فالشفتان مع الواو تنفتح قليلا وبذلك لا يصل انضمامها إلى حد الانطباق، أمّا الباء فالانطباق فيها كامل على عكس الميم التي وضعها بعد الباء من حيث درجة

---

[1]- انظر الرعاية لتجويد القراءة مكي إبي طالب، ص94،95،96، وانظر الموضح، ص30.

[2]-انظر أصوات اللغة، ص76.

[3]- انظر الدراسات الصوتية عند علماء العربية، ص92.

الانطباق وعلل ذلك[1] بأن النفس مع الميم لا يحتبس بل يجري في الخيشوم بخلاف الباء، وهذا يظهر جلياً في وصف كيفية خروج الميم[2].

المخرج السادس عشر: وهو جوف الحلق والفم، وجعل فيه حروف المد، الألف والواو والياء، وأوضح أن مبدأ أصوات المد هو الحلق حيث تمتد منه إلى آخر الفم دون قطع للصوت في المخرج ولذلك كان مخرجها عنده مقدرا، لأنها تنتهي بانتهاء الهواء الخارج من الجوف، وهذا ما قاله الدرس الصوتي الحديث أيضا حينما وصف مرور هواءها من الفم بأنه حر طليق دون عائق[3] فالصوائت عند الدرس الصوتي الحديث تتميز بالنطق المفتوح دون عوائق،وما أود الإشارة إليه هو المعيار الذي اتخذه المرعشي في تصنيفه للصوائت أو حروف المد كما يسميها، ويتمثل هذا المعيار في عدم الاعتماد لهذه الأصوات في المخرج، والذي يترتب عليه عدم انضغاط الصوت، والذي هو النفس المسموع كما وصفه – داخل هذه المخارج، ولكنه استثنى الواو والياء غير المدية حيث رأى أن الواو والياء غير المديتين يعتمد الصوت فيهما على المخرج حيث يحدث تضيقاً ولكن بدرجة لا توجب انقطاع الصوت أو انضغاطه ولذا أشبهت الألف في امتداد الصوت.

المخرج السابع عشر: جعله للنون المخفاة وهي تخرج من الخيشوم وفرق بينها وبين الغنة،بأن النون الساكنة عندما تخفى تختفي ذاتها ويبقي أثرها والذي هو صفة الغنة،ولذلك سميت النون المخفاة غنة،أضف إلى ذلك النون المخفاة تُعدُّ حرفاً لاستقلالها بخلاف الغنة فهي أثر للحرف ويعد مخرجها زائدا[4].

---

[1]–انظر هامش جهد المقل،ص32.

[2]–انظر الدراسات الصوتية، ص35.

[3]– انظر علم الأصوات، ص217.

[4]– انظر جهد المقل، ص 34.

المسألة الرابعة: صفات الحروف:

اعتمد المرعشي في دراسته لصفات الحروف على المقابلة بينها فكان الجهر والهمس والشدة والرخاوة والإطباق والانفتاح والاستعلاء والاستفال، أما الصفات التي ليس لها ضد فقد درسها مفردة وأول هذه الصفات.

الجهر والهمس:

اتخذ المرعشي معياراً للجهر والهمس معتمدا على النفس، فقلة النفس يكون مع المجهور، بمعني أنه عند النطق بالمجهور يحدث انحباس للنفس أو حصر له فيجري الصوت الموسوم بالمجهور مع نفس قليل، ووصف هذا الصوت عنده بالقوي، في حين يحدث العكس في المهموس يقول في ذلك: "وإن نفس المجهور قليل ونفس الحرف المهموس كثير"[1] ولو عدنا إلى تمييزه بين الصوت والنفس سندرك حقيقة مفادها أن المرعشي في وضعه معيار الجهر والهمس نظر إلى كمية الهواء المزفور من الرئتين، فكما هو معروف أن الصوامت المهموسة تحتاج إلى إخراج كمية كبيرة من الهواء المزفور لكي تنتج أكثر من الصوائت المجهورة[2] ولو دققنا في هذا المعيار سنستنتج حقيقة أخرى وهي أن النفس الكثير الذي يخرج من الصوت المهموس سبب خروجه بكثرة هو أنه لم يجد عائقا يعترضه في مبدأ خروجه في الحنجرة والعكس مع المجهور، ويتضح ذلك في قوله "وإن صوت الحرف وإن كان مجهورا فهو لا يتحقق بدون النفس، لأن حقيقة الصوت هو النفس المسموع"[3] وطالما أن النفس قليل مع المجهور فذاك يعني أنه تم حبسه في منطقة الحنجرة بسبب اعتراضه،ولو عدنا لمعيار المرعشي في التفريق بين الجهر والهمس، سنجد أنه تفسير لتعريف من سبقه للمجهور يقول مكي أبي طالب: "حرف قوي يمنع النفس أن يجري معه"[4] فعند النطق بالصوت المجهور يحدث التحام أو انسداد في الموضع الذي يبدأ منه تكوين الصوت المجهور وهو أقصى الحلق، هذا

---

[1]-جهد المقل ص40.

[2]- انظر علم اللغة، ص151.

[3] - جهد المقل، ص 40.

[4]-الرعاية، ص37.

الانسداد يمنع النفس من المرور إلى منطقة الفم لفترة من الزمن ينطلق بعدها ذلك الصوت وينفتح الانسداد وهذا ما أسماه سيبويه إشباع الاعتماد، وهو مرتبط بالعملية التي تحدث أسفل الحنجرة من غلق أو تضييق ينتج عنها ارتكاز الصوت المجهور على الموضع الذي حصر فيه النفس والمرعشي في تقيده بهذا المعيار لتوصيف الجهر والهمس أحس بما يحدث للنفس من حصر أو عدمه أسفل منطقة الحلق.

معيار الشديد والرخو والمتوسط عند المرعشي

ربط المرعشي حديثه عن صفتي الشدة والرخاوة بصفة المجهور والمهموس،واعتمد في ذلك على مقياسين هما: الاحتباس والجريان للنفس والصوت، فكلا المقياسين يتوفران في صفات المجهور والمهموس والشديد والرخو، ولكنه ميز بينهما ولم يخلط حديثه بين هذه الصفات والدليل على ذلك قوله: "وجرى الصوت لضعف الاعتماد على المخرج مع نفس قليل وهو في الرخو المجهور"[1] فالصوت يجري مع الرخو ولكن النفس يكون محبوسا مع المجهور، والذي يفرق بينهما هي دلالة النفس والصوت عند المرعشي يقول في ذلك: "فمن عدّ الكاف و التاء من المجهور بناء على أن الشدة تؤكد الجهر فقد وهم، إذ لو كان كذلك لكان جميع الحروف مجهورة "[2].

أما معياره في تحديد صفة التوسط بين الشدة والرخاوة فكان عدم اكتمال احتباس الصوت وجريه، ومن هنا نجده يفاوت بين الحروف الرخوة والبينية من حيث الجريان، فالحروف الرخوة يكون جريان الصوت فيها أكثر من الحروف البينية، بالإضافة إلى ذلك نجده يستعمل مصطلح الآنية للصوامت الشديدة[3] وورد هذا المصطلح بمعناه عند ابن سينا أيضا.

---

[1]-جهد المقل،ص 38.

[2]-المصدر نفسه، ص 41.

[3]- انظر جهد المقل،ص39، وانظر أباب حدوث الحروف، ص 125.

ومن خلال شرحه نستطيع أن نستوضح مقصده للتفريق بين الشديدة والمجهورة، فقد ربط المرعشي وجود صفة الشدة في لحظة أو آن حبس الهواء في مجراه، وهذا الأمر يفسره الدرس الصوتي الحديث حيث يُسمي الصوامت التي تنتج بسبب قفل تام ثم فتح بالانفجارية وفي بعض الأحيان بالآنية[1] وبالعودة إلى قوله أن الذي يصف الكاف والتاء بسبب قوة الاحتباس للهواء أو للصوت في مجراها بالجهر فقد توهم في هذا الوصف، ونجد هنا دقة في المقياس الذي وضع للتفريق بين المجهور والشديد، لأنه وحسب نتائج الدرس الصوتي الحديث الصوت الشديد لا يتأتى نطقه دون أن يُتبع بصوت مستقل، هذا الصوت هو عبارة عن الهواء المندفع وهو الذي يلي الانفجار، فإذا نطقنا صامتا انفجاريا مهموسا كالكاف أو التاء مفردتين فإنه يتبعهما في الغالب صوت مهموس قصير[2] وأشار المرعشي إلى هذه الحقيقة في قوله: "الشدة في آن، والهمس في زمان آخر"[3] وذلك يعني أن شدة الكاف والتاء باعتبار الابتداء لحظة انحباس الصوت، أما همسهما فباعتبار الانتهاء عند انفتاح المخرج على الهمس حيث يجري النفـس مدة من الزمـن، وسمى المرعشي الصوت المهموس القصير بالصوت الزائد في المهموس، وهو يحدث بعد ضغط المخرج وحصول الحرف الشديد المهموس كالكاف والتاء، وهذا ما عبر عنه د. محمود السعران عندما قال أن الكاف والتاء يتبعهما في الغالب صوت مهموس قصير عند خروجهما بعد الانفجار.

القـلقلة:

في تناوله لصفة القلقلة بدأ بتعريف دلالتها في اللغة حيث أورد أنها بمعنى التحريك، وفي الاصطلاح: صوت زائد حدث في المخرج بعد ضغط المخرج[4]، ويشترط المرعشي في تعريف القلقلة بالصوت الزائد أن يتم تقييد مصطلح الصوت الزائد بكونه

[1]- انظر علم اللغة، ص153.

[2]. انظر المصدر نفسه، ص 158.

[3]. جهد المقل،ص41.

[4]- انظر جهد المقل، ص 41،42.

قويا جهريا شديدا،وتعليله لذلك أن الشدة تحصر صوت الحرف لشدة ضغطه في المخرج والجهر يمنع جري النفس عند انفتاح المخرج فيلتصق المخرج التصاقا محكما فيقوى الصوت الحادث عندما ينفتح المخرج، والحروف التي ينطبق عليها هذا الشرط هي: القاف، الطاء، الباء، الجيم، الدال، واستثنى الكاف والتاء وفقاً لمعيار القلقلة في أنه يصحب خروج هذه الأصوات صوت زائد، وأن التاء والكاف الصوت الزائد معها صوت همس ضعيف – وسبق الحديث عنه . فالقلقلة هي اجتماع الشدة والجهر، وتنتفي القلقلة بانتفاء إحداهما، ونجد في المقابل يشير إلى علة عدم اعتبار الهمزة من حروف القلقلة، فهي بحسب الوصف صوت مجهور شديد، لذلك علل عدم قلقلتها أنها وكما جاء في وصف صاحب الرعاية كالتهوع والسعلة[1] فعند الضغط والتكلف في إخراجها كقلقلتها مثلا تظهر كالتهوع والسعلة ولذلك أخرجت بلطف ورفق .

الاستعلاء والاستفال:

في تحديده لمعيار صفة الاستعلاء اعتمد المرعشي على ارتفاع أقصى اللسان، فقد أدرك أن الجزء المستعلي من اللسان هو أقصاه[2] ذلك أن من سبقه من العلماء في أثناء حديثهم عن صفة الاستعلاء لم يحددوا أي جزء من اللسان يرتفع أو يستعلي مع حروف الاستعلاء، فكل العبارات التى كانت تصف خروج الحروف المستعلية تكتفي بذكر أن اللسان معها يتصعد إلى الحنك الأعلى[3]، وبتحديده لأقصى اللسان في الاستعلاء استثنى حروف الجيم والشين والياء لأن فيها ارتفاع لوسط اللسان عند تكوين مخرجها، وكذلك الكاف فارتفاع اللسان فيها يكون في منطقة ما بين أقصى اللسان ووسطه، وعلل استثناء هذه الحروف من الاستعلاء بأن استعلاء اللسان معها

---

[1]- انظر الرعاية،ص52، التهوع التقيؤ وتهوع تلف القئ، انظر لسان العرب 512/10.

[2]- انظر جهد المقل،ص 45.

[3]- انظر المقتضب، 225/1.

لم يبلغ درجة الحروف المستعلية، والاستفال عكس الاستعلاء ووصفه حروفها بالانخفاض لأن اللسان لا يستعلي معها .

الإطباق والانفتاح:

وقد أوضح أن معيار صفة الإطباق هو استعلاء أقصى اللسان ووسطه إلى جهة الحنك الأعلى وانطباق الحنك الأعلى على وسط اللسان، بحيث ينحصر الصوت بينهما، ونستشف الدقة في وصفه لصفة الإطباق من خلال تفريقه بين الحروف التي يحدث فيها انطبـاق كامل بحيث يُحصر الصوت تماما وهذا يحدث مع الطاء فقط، ذلك أنها – وحسب رأيه صوت شديد فلا يُسمح للهواء بالجريان بسبب الانطباق الكامل، أما الصاد والضاد والظاء فهي رخوة يجري فيها الصوت ولذلك وصف الانحصار معها بالانحصار في الجملة وليس بالانحصار في الكلية [1]، وقد قارن المرعشي بين الإطباق والاستعلاء وجعل الأول ملزماً للثاني، فإذا نطقنا بالضاد وأخواتها استعلى وسط اللسان وانطبق الحنك عليه فالإطباق يوجب الاستعلاء لكن الاستعلاء لا يوجب الإطباق، أما الانفتاح فقد وصفه بانفتاح ما بين اللسان والحنك وعدم انحصار الصوت بينهما حتى لو حدث انطباق لأقصى اللسان مع الحنك كما في الكاف، والانفتاح عنده أعم من الاستفال.

التفخيم والترقيق:

عرف التفخيم عنده بأنه تسمين وتجسيم وتغليظ [2]، والترقيق عكس ذلك، فالتفخيم يمتلئ الفم معه بصدى الحرف في حين الترقيق لا يمتلئ الفم بصداه، وقدر التفخيم على قدر الاستعلاء والإطباق فكلما كانت درجة إطباق واستعلاء الحرف أكبر وجب

[1] – انظر جهد المقل،ص45.

[2] – انظر المصدر نفسه، 46.

التفخيم، فالطاء مثلا أفخم الحروف بسبب قوة إطباقها، والقاف أفخم من الغين والخاء بسبب قوة استعلائها.

الصفير:

وعرف المرعشي هذه الصفة في الاصطلاح بقوله: "صوت يخرج مع الحرف يشبه الصفير وحروفه ثلاثة: السين والصاد والزاي"[1]، ووصفت هذه الحروف بالقوة لصفيرها، لأن الصفير زيادة في صوت الحرف، وأوضح المرعشي أن السين أوضح في الصفير من الصاد والسبب في ذلك الإطباق الذي في الصاد، ولكن هذا الإطباق لا يحصر الصوت الخارج مع الريح كلية في نطق الصاد، وقد رتبها على هذا النحو: السين،الصاد،الزاي، والسين أوضح من الصاد .كما بُيّن فيما سلف . بينما الصاد أوضح في صفيرها من الزاي والعلة في ذلك أن الزاي مجهورة والسين والصاد مهموستان .

التكرير:

وعرفه المرعشي في الاصطلاح بقوله: "ارتعاد رأس اللسان عند النطق بالحرف"[2]، وفي بيانه لصفة التكرير ناقش المرعشي قضية إخفاء تكرير الراء، حيث رأى أن ليس معنى اخفاء تكريرها إعدامها تماما، وذلك بعدم ارتعاد رأس اللسان أي إخفاء طرقات اللسان على اللثة، لأن ذلك بطبيعة الحال سيؤدي إلى التصاق طرف اللسان باللثة حيث ينتج عن ذلك حصر الصوت بينهما كالطاء، وهذا من الخطأ كما يراه المرعشي[3]، فذلك وبحسب معيار الشدة يصير الراء من الحروف الشديدة، في حين يُعدُّ من الحروف البينية .

---

[1]- جهد المقل، ص48.

[2]- جهد المقل،ص49.

[3]- انظر المصدر نفسه،49.

التفـــشي:

في الاصطلاح كما بيّنه المرعشي: "كثرة خروج الريح بين اللسان والحنك وانبساطه في الخروج عند النطق"[1] وفي حديثه عن هذه الصفة يعرض لآراء تحدثت عن التفشي في حروف غير الشين كالفاء والثاء والصاد والسين والراء، ويري المرعشي أن هذه الحروف اشتركت في كثرة انتشار خروج الهواء، لكن الانتشار في الشين يكون أكثر منها فاعتمد المرعشي في التفريق بينها على نسبة انتشار الهواء عند النطق بها .

الاستطـــالة:

وهي في الاصطلاح كما عبر عنها المرعشي " امتداد الصوت من أول حافة اللسان إلى آخرها"[2] وهي صفة الضاد وقد بيّن المرعشي الفرق بين المستطيل والممدود، فالمستطيل يتحدد طول صوته بقدر طول مخرجه ولم يتجاوز ذلك المخرج المحقق، أما الممدود فليس له مخرج يتعين طوله به فهو يتحدد بانقطاع امتداد هوائه، ويقاس التفشي بامتداد الصوت حتى ينقطع في المخرج ولذلك لم تعد الراء من الحروف المتفشية لأن طول امتداد صوتها أقل من طول مخرجها[3].

وبعد فراغه من الحديث عن الصفات قام المرعشي ببيان الصفات القوية والضعيفة فصنفها كالآتي:

الصفات القوية هي: الجهر، الشدة، القلقلة، الاستعلاء، الإطباق، التفخيم، الصفير، التفشي، الاستطاله، الغنة، ولكن هذه الصفات تتفاوت في القوة فيما بينها فالقلقلة هي أقوى الصفات تليها الشدة ثم الجهر، ويرى أن الصفات الضعيفة إذا كانت في حرف جعلته ضعيفا كما هو الحال في الهاء، ويبدو أنه أفاد من وصفه للمخارج والصفات للتنبيه عند النطق بها من اللحن أو الخطأ خاصة في قراءة القرآن، فبدأ

---

[1]- المصدر نفسه، ص50.

[2]- جهد المقل، ص 53.

[3]- انظر المصدر نفسه،ص 52مع هامشه .

بالهمزة حيث أوضح أهم ضوابطها في النطق وهو عدم تكلف القارئ إخراجها وحبس النفس معها حتى لا يظهر صوتها قبيحا، فإذا لفظها القارئ بعد ألف فلا يُفخم لفظها، وعلته في ذلك أن الألف تزيد الحرف تفخيما خاصة الحروف المفخمة لذلك ترقق الهمزة إذا وقعت بعد ألف أو بعد حرف مفخم أو مستعل[1] وعلل المرعشي لذلك أن صفة التفخيم تغلب الترقيق ومن هنا يصعب على اللسان النطق بالمرقق مع وجود صفة التفخيم، ويُفسر هذا الأمر من وجهة النظر الحديثة بما يعرف بقانون الأقوى حيث يرى أنصار هذا القانون أن الصوت الذي يمتلك هيمنة وقوة في صفاته يؤثر في الصوت المجاور له[2] ونستنتج ذلك من قوله: "فيسبق اللسان إلى أن يعطي للمرقق تفخيما ليعمل عملا واحدا "[3] كذلك الحال مع الهاء إذا جاورتها حاء، فالهاء كما وصفها حرف ضعيف يجب بيانها إذا جاءت مع الحاء، والأمثلة التي أوردها في فصل التنبيهات كلها تحذر من تغيير نطق الحروف الضعيفة إذا تجاورت مع حروف ذات صفات قوية، كالخاء التي يأتي بعدها ألف، حيث يرى أنه يجب لفظها مفخمة لأن الألف الذي بعدها يزيد في تفخيمها فيجب الحذر من ذلك عند قراءة الآيات التي تحتوي على مثل ذلك، كذلك القاف إذا وقعت قبلها أو بعدها كاف، وأيضا الجيم إذا جاءت ساكنة وبعدها دال أو تاء وجب إظهار مخرجها عند النطق بها في هذا التركيب، ويكون ذلك بالمحافظة على جهرها وشدتها حتى لا يتحول مخرجها إلى شين، وتدور كل الأمثلة التي ساقها من القرآن في حال الإدغام حول قانون الأقوى ويقول في ذلك: "إن القوي يجذب الضعيف إلى نفسه"[4].

وخلاصة القول أن دراسة المرعشي للمسائل الصوتية جاءت دقيقة ومفصلة خاصة وأنها اعتمدت على النص القرآني، بها من الإضافات ما أثرى الدرس الصوتي في علم التجويد، حيث احتوت تصنيفاته سواء للمخارج أو الصفات على حقائق

[1]- انظر المصدر نفسه،ص 147.

[2]- انظر الاصوات اللغوية، ص268.

[3]- جهد المقل، ص 147.

[4]- جهد المقل، ص 156.

فسرت دراسة من سبقه من العلماء، كما تميزت هذه الدراسة بالدقة في وضع المعايير التي اعتمدها في تصنيفه للمخارج أو الصفات وفي دراسته لعملية تكوين الصوت واعتماد على دلالة الصوت والنفس في التفريق بين الصفات التي اتهم علماء العربية القدامى بالخلط بينها في بعض الأحيـــان أو عدم وضوحها في أحايين أخرى، والمطلع على دراسة المرعشي للقضايا الصوتية خاصة للمخارج والصفات سيلحظ أن هناك تقارباً بين آراءه وبين ما وصل إليه الدرس الصوتى الحديث، ولم يكتف في منهجيته بالنقل عن غيره فقط بل بتحليل ما نقله بدقة متناهية وتفسير ما غمض من دراسات من سبقه فظهرت شخصيته العلمية المستقلة في طرح آراءه في مؤلفه .

المصادر والمراجع:

1- أصوات اللغة، أحمد أبو الخير، جامعة المنصورة، 2006م .

2- الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، سمير أستيتية، دار وائل للنشر، ط 1- 2003 م، عمان .

3- الأصوات اللغوية عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر، ط 1 - 1998م عمان .

4- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط 15 2002م، بيروت .

5- التحول والثبات في الأصوات العربية حسام النعيمي، مجلة المجمع العلمي العراقي، 1986م .

6- جهد المقل، المرعشي، تحقيق جمال شرف، دار الصحابة للتراث بطنطا.

7- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، 2004، م، القاهرة .

8- الدراسات الصوتية عند علماء العربية، عبد الحميد الاصيبعي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ط 1- 1992م، طرابلس .

9- الرعاية لتجويد القراءة، مكي أبي طالب، اعتني به جمال شرف وعبد الله علوان، دار الصحابة للتراث بطنطا،2002م .

10- علم الأصوات، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، 2000م، القاهرة.
11- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية للنشر.
12- لسان العرب، ابن منظور، صححه أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي.
13- المقتضب، المبرد، تح محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
14- الموضح، القرطبي، ضبطه أحمد فريد، دار الكتب العلمية، ط1، 2006م، بيروت.